

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190058

UNIVERSAL
LIBRARY

كتاب
خَطِّ الشَّيْخِ

الجزء الرابع

تأليف

مكي عبد الله

رئيس المجمع العلمي العربي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع في مطبعة الشرق بدمشق ١٩٤٥ هـ و ١٩٢٦ م

التاريخ المدني

— ٢٥٥ —

العلم والادب

ما يُراد بالعلم } نريد بالعلم علم الدين والدنيا ، فالعالم بالحديث عالم ، والعالم
والأدب } بالطب عالم ، والعالم بالكلام عالم ، والعالم بالهندسة عالم .
والكيمياء علم ، والبيطرة علم ، والتاريخ علم ، والجدل علم ، وشرف هذه العلوم بشرف
مقاصدها ، وأشرفها في نظر الالهيين ما هذب النفس وأعدّها للحياة الخالدة . وعلوم
الدنيا هي الوسيلة الى تلك السعادة كما قال حجة الاسلام الغزالي ان الفقيه معلم
السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لينتظم باستقامتهم امورهم في
الدنيا ، ولعمري انه متعلق ايضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا . فان
الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين الا بالدنيا .

وقد كان البشر قبل ظهور الاديان المشهورة يستخدمون علوم الدنيا للدنيا ، وكانت
بسائط على حالة ابتدائية بالطبع ، ويعكفون من جهة أخرى على تماثيلهم وأربابهم ومعايهم
يجوّدون صنعها ، ويمجدونها وينعتنون بمدحها ، فلما جاءت الأديان المعروفة تغير الشكل
بصورة أخرى ، وبقيت العناية بالعلوم تختلف باختلاف الأصقاع والدول . اما الادب
فالذي كانت العرب تعرفه انه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم . واصطلح الناس
بعد الاسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر أدبياً وعلوم العربية أدباً . والمراد
بالاسلام كما قال النووي من حين انتشر وشاع في الناس وذلك قبل الهجرة النبوية
بنحو ست سنين .

للاهووية والاهواء تأثير في العلم ، والعلوم ربيبة البلاد المعتدلة او الباردة اكثر من البلاد الحارة والوبئة ، لان اهل هذه قصيرة آمالهم في الحياة ، محدودة مطالبهم ، فائرة همهم ، مثلوم حدم ، متداعية صحتهم . ومن صرف وكده ايضاً الى الاهواء المذهبية ضعف سلطان العلم فيه ، لتوزع القوى ، وانصراف رغبته عن الفانية الى الباقية ، واشتغال الذهن بامور لا يتسع لغيرها في الاغلب . وكما توغلت امة في مضمار المدنية نظرت الى علوم الدين وعلوم الدنيا نظرة واحدة ، وشرفت ما تشد حاجتها اليه منها ، وأقبلت بكليتها على المشتغلين بها . فقد رأينا جامعات اوربا في القرون الوسطى تنشأ لغرض الدين على الاكثر ، فلما عظمت مطالب البشر ، وأخذت المدنية تسير سيرها ، أصبحت العلوم الدينية في جامعاتهم تقرأ كما يقرأ التاريخ والادب والطبيعة ، لا فضل لديني لاهوتي على طبيعي رياضي ، الا بالاثر الناتج عن درسه وبجته ، هذا ان لم يرجحوا في عرفهم العالم الثاني . وبيننا نجد تماثيل العلماء بالملئات في شوارع الغربين وساحاتهم ومتاحفهم ودور العلم والصناعات عندهم ، لا تشهد من علماء الدين الا تقرأ قليلاً أقيمت لم التماثيل داخل البيع والكنائس فقط .

كان الاقتصار على العلم الديني في الصدر الاول للاسلام ، ثم تسربت العلوم الدنيوية بسرعة ، ورأى علماء الامة انها نافعة لقوام الدين والدنيا ، وبذلك أقنعوا العامة ومن فوق درجتهم ، فأقبل الناس عليها ، وكانت العناية اولاً بعلوم القرآن والسنة ، ثم أقبل الناس على الفقه « توصلوا الى نيل العز ودرك الجاه » ذلك لان حالة الزمن اقتضت الاقبال عليه لتعدد الخصومات بين الناس واتساع المملكة الاسلامية ، ثم أقبلوا على علم الكلام ، لما رأوا له رواجاً بين السلاطين وللحاجة الماسة اليه خصوصاً وقد دخلت فلسفة القدماء وصادفت لها أنصاراً وعشاقاً ، وتولدت من فتح باب المناظرة في الكلام تعصبات فاحشة وخصومات أفضت الى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ثم مالوا الى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذاهب الشافعي وأبي حنيفة ، ونشأت قن من تخاصم الحنابلة مع الشوافع ، والسنة مع الشيعة ، والمعتزلة مع الحشوية حتى اضطر السلطان سنة ٢٧٩ ان يحلف الوراقين ببغداد ان لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفه ، كأنها بعض المخدرات التي تضر بالعقل . ثم كثرت العلوم بين العرب

في المدن على توالي الايام ، وضعفت وضعف سندها في القرن العاشر للهجرة ، الى ان أخذت بالتطور ظوراً جديداً أواخر القرن الثالث عشر وأوائل هذا القرن على ما سيجي .

وأهم العوامل في اضمحلال العلم في كثير من بلاد الاسلام زهد الملوك والامراء فيها واشتغال الناس بالفتن والغوائل . ومذاخذ العلماء بتعلمون علوم الدين للجاه والمال ، ضعفت علوم الدين والدنيا معاً . وأصبح السلطان للممخرقين والمعطلين والمتهموسين بمسائل الكشف والولاية من علماء الرسم ، وليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق ، وتهذيب الأخلاق ، على ان من تعلم علماً للاحتراف لم يأت علماً وانما يجي شبيهاً بالعلماء . ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الامر ، ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد ، فأقاموا للعلم مأتماً ، وقالوا كان يشتغل به أرباب العلم العلية والانس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينفع بهم ويعلمهم ، واذا صار عليه أجرة تدانى اليه الاخساء وأرباب الكسل ، فيكون ذلك سبباً لارتفاعه ، ومن هنا هجرت علوم الحكمة وان كانت شريفة لذاتها .

ان الذين يولعون بالعلم للعلم في هذا العالم قلائل جداً ، ولكنهم يكونون على الاكثر ممن نسميهم او اكثرهم باهل النبوغ والعبقريه ، لانهم يثفانون في مقصدهم ويأتون بالجديد والابداع فيبرزون على من اتخذوا العلم آلة للمظاهر وعنواناً للتصدر ، وهم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة في الارض ، وتبقى أعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم أحقاباً ودهوراً ، ومن هذا الفريق أنجبت الشام قديماً وحديثاً جماعة افتخرت بهم ، وعُدُّوا بأعمالهم بالقياس الى حال هذا القطر والى مجموع علماء الامة كتلة صالحة أثرت تأثيراً محموداً في العلم والمدنية ، وقد عرفنا تراجم اكثر رجال العهد العربي لقربه منا ، ولا طراد التدوين في العرب في أغلب العصور على طريقة حسنة في الجملة ، فوقفنا بها على منازعهم وأعمالهم الا قليلاً . وقد غابت عنا تراجم كثير من المهندسين والنقاشين والمصورين والموسيقين لانه جاء زمن القوم على ما يظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من اهل الصناعات فقط ، لا من أهل العلم . كأن العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعة من الصناعات . وقد اصطلح المتأخرون

نعم العلم ابن الحرية ، والأدب ربيب التسامح ، وقد شاهدنا أجدادنا في هذه الديار المثال الصالح في هذا الباب على اختلاف العصور والمذاهب ، وكان العرب في أدوارهم المختلفة يمثلون أجمل صورة من هذا القبيل . فان كانت أنطاكية وبيروت قبل الاسلام عاصمتي الحكمة والأدب والشرائع ، فقد امتازت بعدهما حلب والمعة وطرابلس ودمشق وحمص بهذه الخصائص . والعلم بضاعة ثمينة لا تروج الرواج المطلوب الا في ظل السلام وصلاح السلطان .

هذا شأن العلم اما الادب وهو منظوم الكلام ومنثوره فيتصرف ايضاً على هذا المثال ، وبه ولا سيما بالشعر أدركنا بعض الحالة الاجتماعية والروحية التي كانت عليها تلك الاعصر ، ورأينا فيه تبدلاً محسوساً في القرون التالية ، فكانت الآداب في الشام في القرن الاول غيرها في القرن الثاني والثالث ، وقد استحكمت اسباب الحضارة وعم الترف ، ونقلت علوم الأوائل وراجت سوق الشعر في الرابع والخامس في الشمال ، وما لبثت في أواخر هذا القرن ان عراها الكساد قليلاً ، ثم هبت الى الحياة بعض الشيء في السادس والسابع تبعاً للحالة السياسية التي كانت عليها البلاد زمن الحروب الصليبية ، ولم ينشأ في الشام خلال القرنين الثامن والتاسع شاعر يجوز عدّه في مصاف المفلّحين على مثال شعراء القرن الثالث والرابع ، اما في القرون الاربعة التالية فضعفت حالة الشعر اكثر من ذلك بما لا يقدر ، وأصبح نظماً لا شعراً فققدت من اكثر ما نقل من الشعر الروح وبقي جسماً له من الشعر قوافيه وأوزانه ، بطرس فيه المتأخر على مثال المتقدم وثنأثر أنفاس الابن بأنفاس أبيه وجده .

ان حكمنا على المنظوم يسوغ ان نورده في المنثور ، فبعد ان كانت الانشاء في القرنين الاولين للاسلام يسير مع الطبع غالباً ونبغ فيه في الشام أفراد كعبد الحميد بن يحيى الذي وضع أساس الكتابة المرسلة ، ورأينا عمر بن عبد العزيز يكتب الكتاب في الادارة او السياسة او القضاء او في امر مهم من امور الدولة في سطرين او ثلاثة لا غبار عليه من الكلفة بته بل هو الفصاحة والبلاغة بجملتها وتفصيلها ، وعكذا معظم آل بيته من بني أمية وبني مروان ، ومن نشأ في دولتهم أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي وزباد بن ابيه وصالح بن جناح — شهدنا التكلف بادياً في كتابة القرون

وبطريقتهم اقتدوا وغيروا أسلوبهم من حيث يشعرون او لا يشعرون . وما أسلوبهم الا الجمع بين متسانة القدماء ورقة المحدثين ومعانيهم وتصوراتهم ، وأصبح لهذا العصر طراز خاص عرف به لم يكن له منذ عرف تاريخ الادب العربي اي منذ زهاء خمسة عشر قرناً . وكان للصحف والمجلات ولا انتشار الآداب الانكليزية والفرنسية والتركية وغيرها تأثير كبير في هذا الانقلاب الأدبي في ديارنا ، والمبرزون فيه مازالوا قلائل جداً ، ويرجى ان لا يمضي عقدان او ثلاثة من السنين حتى تكون الشام اخت مصر في هذا الشأن مع مراعاة النسبة بين حالة القطرين السياسية ، والنظر الى وفرة السكان والغنى ، وتوفر أسباب التعليم العربي في القطر المصري .

العلم والأدب عند أقدم
شعوب الشام } صمت تاريخ العلم في هذه الديار عن ذكر الرجال
الذين اشتهروا مثلاً على عهد الحبشيين ومن كان
قبلهم من القبائل التي نزلت الشام ، وخلفت فيها آثاراً في العمران لا يتأتى ايجاد مثلها
الا بالعلم ، ولم ينقل الا اسماء قليلة لمن اشتغلوا بالعلم الديني والدنيوي على عهد بعض
الدول الخالفة ، ولا سيما الكلدان والعبران والرومان واليونان ، ولولا بعض عادات
أثرت عن الامم التي تأصل حكمها في بعض أرجاء البلاد ، وأخبار نقلتها التواريخ
الصحيحة ، لقلنا ان أكثرهم كانوا أمماً بدوية على الفطرة . وأهم ما أثر عن الفينيقيين
مما ساعد العلم بالنسبة لعصورهم اختراعهم حروف الكتابة ، بل تحسين اصولها وجعلها
مطابقة للاصوات ، ونقلهم لها الى الامم التي أبحروا اليها واتجروا معها ، وعندهم أخذتها
أم الحضارة الحديثة النازلة على شواطئ البحر المتوسط وما اليها . وهذا الاختراع
أهم ما عرف في القديم كما كانت الطباعة في القرون الحديثة أهم اختراعاتها في نظر
العلم . قال بورتير : لا يستحق الذكر من علوم الفينيقيين سوى علم الكتابة بحروف
هجائية وليس هم اول من استعملوا الكتابة لانا علمنا من الآثار انها كانت عند
المصريين والكلدان قبل عهدهم غير ان كتابتهم لم تكن بحروف وفق الاصوات
البشرية الاصلية كالحروف الهجائية التي استنبطها الفينيقيون واعتبروا بها كل

مدرسة الفقه التي أسسها على الغالب بعض امبراطرة الرومان من الشاميين — وقد نشأ من حمص وبصري امبراطرة لبسوا تاج المملكة الرومانية وحكموها — وكانت اللغة اللاتينية لسان العلم في تلك المدرسة ، و يدرس فيها الفقه والآداب واللغة يقصدها الطلاب من جميع انحاء المملكة حتي من روم القسطنطينية ومن أبناء العرب ، وقد تخرج باساتذتها أناس تألفت شهرتهم في الادب والشرعية ، وكان قضاة الرومان من خريجيها مدة اربعة قرون ، وكان اثنان من تلامذتها من جملة اعضاء المجمع الذي ألفه الامبراطور يوستينيانوس لتدوين الفقه وقيل ثلاثة وهم اودكسيوس واناطولوس ودوروثاوس ، ومن أساتذتها اميل بابنيان من بيروت وكان من أشهر فقهاء الرومان ، وعد من جملة الفقهاء الخمسة الذين نزل أقوالهم منزلة شريعة ، واذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله ، ومنهم اولبيان وهو من المشهورين من فقهاء الرومانين ذهب بعضهم الى ان مولده بيروت وغيرهم الى انه في صور ، ومنهم يوليوس بولس الحمصي وهو مشهور في الفقهاء الرومان ، ومنهم مكسيموس الصوري وهو فيلسوف أفلاطوني ، ومنهم لوسيان السميساطي كان نقاشاً فقيهاً فيلسوفاً بليغاً ، ومنهم اسباسيوس الجبيلي الخطيب المؤرخ ، ولنجينوس صاحب زينب ملكة تدمر الذي جلبته كما جلبت بولس دي ساهوزات اسقف انطاكية لينشر العلم في أرجاء مملكته . ومن كان في تدمر وفي أرجاء الشام على ذاك العهد كتيكراتيس الصوري وعالم المؤرخين بوسانياس الدمشقي ونيكوماخوس المؤرخ . ومن أفضلت عليه زينب صاحبة تدمر وكانت تعرف التدمرية والمصرية واليونانية واللاتينية والعربية على الأرجح لان اسماء اولادها عربية — كاسيوس و يونيوسيوس واوريجانس فيلسوف قيسارية . ومن علماء بيروت الاقدمين هرمبوس له تأليف عديدة وسيلير الفيلسوف ومناسيا ألف كتاباً في البيات والفيلسوف الافلاطوني طورس والطبيب اسطرابون وساو يرس بطريك اليعاقبة وهذا كان في القرن الخامس للميلاد . وكثر في القرن الثالث للميلاد ببلاد الشام الكتاب وارباب القرائح واهل العلم والحصافة والحكمة ومن نشأ فيها من الادباء والفلاسفة لوسين وجامبلتوس وبلوتين . قال سنيوبوس : حفظت في مدارس الروم في دمشق والاسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا

ورباضيات وطب فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم واكملوها ونشروها .

مواطن العلم في القطر } كان العلم يدرس في تلك الاحقاب في اربع
قديمًا } مدارس وهي القسطنطينية والاسكندرية
ورومية وبيروت ، وقد أنشأ الرومان مدرسة في قيسارية ، وأخرى في آثينة ،
وكان لصيدا على ذلك العهد مدرسة حكمة ذات شأن ، ولكن دون مكانة مدرسة
جارتها بيروت . وقد ألغى يوستنيانوس مدارس قيسارية وآثينة والاسكندرية ،
وابقى مدارس رومية والقسطنطينية وبيروت ، ولقب بيروت بأُم العلوم وظئر
الشرائع . وأعنى ديوقليسيانوس قيصر الفقراء المتخرجين في مدرسة بيروت من
الضرائب تنشيطاً لهم . قال المسعودي : انتقل مجلس التعليم من آثينة الى
الاسكندرية وجعل اغسطس الملك لما قتل قلوبطرة الملكة التعليم بمكانين
الاسكندرية ورومية ، ونقل تيودوسيوس الملك التعليم من رومية وردّه الى
الاسكندرية . وقد خربت مدرسة بيروت قبل الاسلام بالزلازل التي تواترت على
الثغر في القرن السادس للميلاد ثم حريق سنة ٥٦٠ م الذي ألهم بيروت
ومساكنها ومعاهدها .

قال استرابون الجغرافي اليوناني من اهل القرن الاول قبل الميلاد لم يبق في صور
وصيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة ، بل كان فيها كثير من أصحاب علم
الهيئة والعلوم الرياضية والخطباء والفلاسفة ، ومدارس تقتبس فيها كل العلوم
البشرية ، وقد أنشأت صيدا في ايامنا كثيراً من الفلاسفة منهم بواتيوس تليذنا
وديودوت ابوه ، ونشأ في صور انتيباتر وقبله ابولون ، وكان في ايامنا فيلسوف اسمه
بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه .

وكانت اللغة اللاتينية ثم اللغة اليونانية هما لغة العلم في هذه الاحقاب ، ولكن
السريانيون أصحاب البلاد الأصليين لم يكونوا دون الرومانيين واليونانيين في تخرج
الرجال ، ولا سيما في عهد النصرانية . فقد هبت في المئة الرابعة للميلاد اللغة الآرامية

